فضاءات المكان وأثرها في تشكيل النص الروائي في رواية (الجليد) لصنع الله إبراهيم

أ.م.د. جاسم محمد عباس
جامعة الأنبار-كلية الآداب

م.د . عارف عبد صايل
جامعة الأنبار-كلية الآداب

المستخلص

يدرس البحث توظيف الفضاء المكاني في رواية الجليد التي نشرها الكاتب المصري(صنع الله إبراهيم) في عام ٢٠١٠ . وتتميز رواية الجليد بتجليات أمكنة داخل الاتحاد السوفيتي باعتباره مسرح الأحداث التي يجسدها الراوي من خلال معاينته لتلك الأحداث التي تعود إلى سنة ١٩٧٣، وكما يعد هذا الفضاء العنصر المنظم لكل ما يسرده الراوي، أي بمثابة الخيط الناظم لجسد الحكاية فهو الوحدة الفاعلة في النص التي عمد فيها السارد إلي سرد التفاصيل . وكان اختيارنا لدراسة المكان كونه يمتلك قيمة خاصة، ولما يحمله من دلالات نفسية وفكرية مختلفة باختلاف الشخصيات والأحداث، فضلا عن تضمن المكان حضوراً قوياً طغى على العناصر السردية الأخرى.

Spatial Spaces and Its Effect on the texture of the Text in Sanh Allah Ibrahim's Al-Jaleed (Ice)

Abstract

This paper studies the manipulation of spatial space in Sanh Allah Ibrahim's novel Al-Jaleed (Ice) (2010). The novel focuses on many places in the Soviet Union as the theatre of events in the novel as witnessed by the narrator back in the year 1973. Place is the organizing principle of the narration and it provides the novel's dramatic unity. So we chose the study of the use of place in this novel because of its different psychological and intellectual significances and for the dominating presence of place in this novel.

بنية المكان في رواية (الجليد) لصنع الله إبراهيم

توطئة:

يُعد الفن الروائي من الفنون الأدبية التي شقت طريقها في عالم النقد منذ بدايات القرن العشرين، وقد كان للمكان في الشعر العربي مكانة مهمة فهو مصدر الإلهام الشعري لما يحويه من دفء وعاطفة وأنيس للروح، وما يحمله من ذكريات ألحت على أدبائنا القدماء ولاسيما الشعراء منهم لما فيه من أهمية ارتباط الإنسان بأرضه والمكان الذي عاش فيه وتربى.

ما تزال دراسة المكان في الرواية العربية تحتاج إلى كثير من النقد ولا تزال الدراسات قاصرة على الإحاطة بكل تجليات المكان لكونه الفضاء الذي تحلق فيه مخيلة المبدعين، فتنطلق بعيدًا إلى فضاءاتٍ لا يمكن الإحاطة بها، ويكتسب المكان في الرواية أهمية تفوق بقية العناصر السردية، فهو من أهم العناصر الفنية فيها، وذلك لأن المكان هو الذي تجري فيه أحداث الرواية من شخصيات وفيه يتحرك الراوي والمروي له وبقية العناصر السردية الأخرى.

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة جدلية مصيرية فلا يمكن أن يتصور الذهن لحظات الوجود الإنساني خارج سياق المكان ، فكل ما يحيطنا من مظاهر الحياة يشهد على حضور المكان وتعدد أشكاله، وصوره والإنسان بطبيعته مرتبط بالمكان منذ لحظة وجوده على الأرض إلى نهاية حياته، فكل شيء موجود أو متخيل غالباً ما يرتبط بالمكان.

لم يحظ عنصر المكان في الدراسات الأدبية بالعناية زمنا طويلا سواء أكان في الشعر أو في الفن القصصي ، إذ إن الاهتمام تركز على العناصر السردية الأخرى، ومن أبرز من أسهم بفاعلية في دراسة المكان (غاستون باشلار) في كتابه (جماليات المكان)، وقد انصب اهتمامه على مفهوم المكان ودلالاته الفنية، وأطلق عليه (المكان الأليف) الذي يولد في أحلام اليقظة وتشكله من مخيلتنا، وما تحمله من ذكريات مختلفة[١] ، وأيضا الناقد (ميشال بوتور)، وغيرهما من النقاد.

وأخذ النقاد العرب على عاتقهم الاهتمام بهذا الجانب ولاسيما في أواخر القرن العشرين بدراسة الدلالات المختلفة للمكان على وفق الآليات التي تشكل بناءه الفني وتوظفه دلالياً على اعتباره معياراً للتقويم وجانبا مهماً من جوانب تميزه الجمالي والكشف عن دلالاته المتنوعة .

والمكان الروائي بناء تشيده اللغة من خيال المبدع إذ إن «المكان في الرواية ليس هو المكان الطبيعي أو الموضوعي وإنما هو المكان الذي يخلقه المؤلف في النص الروائي عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئاً خيالياً»[٢] ، والراوي حين يلجأ إلى المكان فإنه يريد أن يعطي لقارئه مصداقية لما يقرأ حتى يجعله يعيش الحدث في مخيلته، وهذه الصفات الطوبوغرافية التي يلون بها الأديب نصه في تركيب صورة المكان ورسم أشكاله المختلفة[٣].

فالمكان يتحول من عنصر من عناصر السرد إلى عنصر تشكيلي من عناصر العمل تقع أحداثها وتحولاتها عليه، فهو المسار الذي يتجه إليه السارد لتشييد خطابه الدرامي ولتجسيد مشهد من العالم الخارجي في لوحة مطرزة من الكلمات تجسدها اللغة . الا اننا يجب ان نميز بين المكان الروائي على مستويات البنية السردية والخطاب الروائي[٤]. فبنية المكان في العمل الروائي ليست الا عنصرا من عناصر بناء العمل السردي الى جانب الزمن وابناء الشخصيات. فهو بعبارة اخرى مجرد عامل بنائي في الرواية ليس الا[٥]. اما بالنسبة للمكان كفضاء نصي فهو مفهوم ظهر حديثا في ادبيات النقد ما بعد البنيوي[٦].

يعطي هذا المفهوم للمكان بعدا واهمية متفردة على مستوى صناعة النص الروائي حيث انه فضاء تتشكل فية نفسية وعقلية السارد والكاتب الضمني على حد سواء.

ورواية الجليد التي نشرها الكاتب المصري(صنع الله إبراهيم) في عام ٢٠١٠ تحكي أحداثاً وقعت في موسكو عام ١٩٧٣ وما بعدها، وفيها يصور مجتمع الاتحاد السوفيتي ويحاول

الكاتب أن يرصد بشكل معمق الحياة اليومية لهذا الراوي وأن يبرز جملة من الوقائع في العلاقات المصرية الروسية إبان تلك الحقبة من خلال تجسيده لبعض الشخصيات داخل الرواية من خلال التركيز على مكنوناتهم النفسية والسياسية للوصول إلى فهم دقيق وواضح لكل مجتمع ينتمي إله الطلاب ، والرواية تجسد عدة أشياء يأتي في مقدمتها المال والجنس وهي صورة لهذا المجتمع الذي أبدع الراوي في وصفها ، فهي رواية إنسان عاش هناك فجسد حلماً لإنسان ضائع يتجاذبه حاضر مر وتأريخ جميل وهو بين هذا وذاك ضائع مشتت، وهذا ما حاولت الرواية تجسيده.

يحاول الكاتب أن يرسم صورة للمجتمع الروسي أو واقع الشباب العربي في ذلك المكان، تبدو شخصية الراوي قلقة ومشوشة لا تستقر على حال تتجاذبها مغريات شتى، وتتميز رواية الجليد بتجليات أمكنة داخل الاتحاد السوفيتي باعتباره مسرح الأحداث التي يجسدها الراوي من خلال معاينته لتلك الأحداث التي تعود كما قلنا إلى سنة ١٩٧٣[٧]، وكما يعد هذا الفضاء العنصر المنظم لكل ما يسرده الراوي، أي بمثابة الخيط الناظم لجسد الحكاية فهو الوحدة الفاعلة في النص التي عمد فيها السارد إلي سرد التفاصيل .طبعا نحن أمام فضاء روائي يستند إلى مرجعية واقعية تؤطرها أحداث تاريخية عاشها الراوي في تلك المدة، ونشير إلى أن صنع الله إبراهيم اختار زمناً دقيقاً من تاريخ الاتحاد السوفييتي[٨]

كثيرون من كتبوا وقدموا روايات شتى ولكن قلة منهم من جعل رواياته معبرة قادرة على إثارة الوعي أولاً والخيال ثانياً[٩]،وقد كانت رواية "الجليد" التي كتبها صنع الله عملاً روائياً فريداً يقوم على مواد متغيرة، يبلغ تعدادها١٢٦ لوحة بعدد الأرقام المثبتة على صفحات الرواية، وكأنها تعمل على قطع خيوط الماضي؛ ويعطل الكاتب ذاكرة الأبطال ويعطل ذاكرة النص نفسه، ويكتفي بالرصد ويعمد إلى استبعاد كل المرجعيات الثقافية [١٠]. وهنا يتعين علي المتلقي شحذ ذاكرته لربطها بذاكرة الأشخاص من دون أن يعينه النص بمؤشرات رابطة أو علائق عضوية بين التفاصيل الصغيرة المتتالية، وربما لو افتقدت اللوحة مشهداً محدداً لاستطاع أن يملأ ثقوب الوعي بمساحته وألوانه وتشكيلاته، لكنها تحتوي علي فسيفساء دقيقة من عشرات الأفعال والحركات والأوصاف المدمجة بأسلوب حواري غير مباشر.

وكان اختيارنا لدراسة المكان كونه يمتلك قيمة خاصة لما يحمله من دلالات نفسية وفكرية مختلفة باختلاف الشخصيات والأحداث، فضلا عن تضمن المكان حضوراً قوياً طغى على العناصر السردية الأخرى.

ومن أجل الإحاطة بأنواع الأمكنة في رواية الجليد، فإننا سنقف على الأمكنة التي تشكلت في خطابه الروائي وأبرزها:

أولاً: المكان الأليف:

معلوم أن تصوير الأمكنة هو ما يحرص أن يشير عليه الروائي حتى يعطي المصداقية لعمله، وهو ما يسمى أيضا مكان العيش الذي يستطيع أن يثير لدى القارئ مكانه هو، فهو مكان عاش الروائي فيه ثم انتقل المعيش بخياله بعد أن ابتعد عنه ، وغالباً ما ترتبط الذكرى الجميلة بالمكان الأليف[١١]، وهذا المكان جزء لا يتجزأ من وجود الشخص فهو الحاضن له والمخفف عنه ، وهو المكان الذي يجد فيه متعة الانتماء.

ويعد سكن المرء من الأمكنة الأليفة وغالباً ما يكون البيت وفي هذه الرواية تكون الغرفة هي الفضاء الذي شكل أحداث الرواية، ففي هذا المكان«يقبل الإنسان على ممارسة تعسه وعيش حياته من حيث هو فرد، وفي كنفه يتحرر من قيود دوره الاجتماعي ويسكن إلى ذاته»[١٢] .

كانت الغرفة التي يعيش فيها الرواي / الشخصية على الرغم من الفضاء المحدود إلا أنها كانت المأوى الذي يسكن إليه، اختار صنع الله بيت الطلبة ومن الغرفة مركزا لأحداث روايته. ومن هذا البيت نتعرف على شخصيات الرواية و أبطالها، ونعيش معهم مشكلاتهم ونشاركهم أحلامهم ونقترب من عوالمهم. ((ظهرت القومندانة قرب الظهر على باب الحجرة بوجهها

المستدير المتجهم الذي يجلله شعر رمادي ملأت فتحته بجسدها البدين، قالت إنها ستضم إلينا طالباً روسياً ، قلت لها إن هناك ثلاثة أسرة فقط فأشارت إلى واحد مفكوك وملقى فوق الدولاب قلت سني ٣٥ ولا أحتمل التكدس والعصبية، ثم إني مفروض أن أقيم في غرفة مفردة كبقية طلاب الدكتوراه، نظرتْ إليّ برهة كأنما تقيس حجمي الضئيل، وإذا ما كنت أستحق فعلاً غرفة كاملة، قالت: تفاريش(رفيق) شكري ستبقون ثلاثة كما كنتم))[١٣] ، فالراوي يكشف لنا عن هذا المكان بالتفصيل الذي سيقضي فيه طيلة مدة دراسته في الاتحاد السوفيتي ، فهو يصور لنا حاله وسط هذه الغرفة كأنما قيست على حجمه الضئيل ، فهو يشعر بالغبن ولا يتساوى مع الطلبة الآخرين الذين يعيشون في غرفة خاصة بهم، فهو مجبر على البقاء والسكوت وعلى الرغم مما يشعر به من ظلم وغبن، ولاسيما هو طالب مغترب تزيد تلك الأمور من معاناته ، فضلا عما يشعر به من فراغ عاطفي وهو يرى الجمال السوفيتي وهذا يتطلب منه ان يطلق العنان لخيالاته فإن تلك الغرفة ربما كانت بسبب من يسكن معه تحد من ذلك، فضلا عن أنه حاول أن يقيم علاقات صداقة حتى يخفف عن نفسه بعض مرارة الغربة« فالإنسان قد يضيق بهذا المكان أو ذاك وقد يكون المكان جاذباً لا طارداً بمعنى أن الشخصية تتوق لكي تكون فيه أو تذهب إليه وتعود نحوه»[١٤] .

وغالباً ما يشعر الراوي/ السارد بالألفة من وجود أشخاص معه ليتعرف معهم على ظروفهم[١٥]((مررت على هانز ودعوته إلى غرفتي أشعلتُ المدفأة الكهربائية المتنقلة صنعنا الشاي ، وحكيت له ما قاله ماريو عن الغربة. ضحك وقال إنها تمثيلية معدة لكي تترك انطباعاً إيجابياً برهافة الحياة في القرية))[١٦] ، ويستمر على المنوال نفسه في تصوير المكان الذي يجمعهم في بلاد غريبة عن تقاليدهم وثقافتهم فكان مكان إقامتهم هو المكان الذي يجدون فيه الألفة((كانت زويا تجلس بجوار هانز فوق فراشه، واستقلت المقعد الوحيد بجوار المائدة، سألتني تاليا عما إذا كنت اشتركت في القتال. قلت إني كنت مجنداً في أحد المكاتب العسكرية بعيداً عن الجبهة ثم عدتُ للتدريس في الجامعة وحصلتُ على منحة من برنامج التبادل الثقافي مع الاتحاد السوفيتي... سألتني عن وضع المرأة في مصر قلت إنه تحسن كثيراً بعد الثورة فخلعت البرقع والنقاب وأصبحت تمارس كثيراً من المهن)) [١٧]، وعلى هذا المنوال كانت تجري أحاديث في غرف الطلبة، فتشكل تلك الغرف مكاناً آمناً وأليفاً يجدون فيه المتعة والأمان، وإذا بالغرفة المكان الذي ينفتح فيه ذهن الطالب المصري على ذكرياته وسيرته حينما كان في مصر، وبذلك يظهر جزءاًمن شخصيته عن طريق ما يسمى بالاسترجاع ، وهذا الأمر يقودنا إلى أن هذه الأمكنة تجمع بين ثنائية الضيق والانفتاح ، فمرات عدة تصبح الوحدة قاتلة فلا بد من شريكٍ يخفف وجع الغربة، فكانت مثل هذه الأماكن تمثل مكاناً يشعر معه بالألفة .

إن الوصف لهذه الأمكنة يعزز الانتماء له ولاسيما حين ينجح الراوي في تحويل الصورة الحسية إلى صورة جمالية يمكن إدراكها بالنظر حين يكون الراوي قادراً على تحويل المكان من« مجرد تمثيل ذهني لدى القراءة أو أثناءها إلى استحضار قائم على التصوير الحسي الملتقط بالبصر، فهو يصل بالمكان إلى أرقى ما يمكن أن يبلغه الحيز من تمكن»[١٨] ، بل تكون أشبه بلوحة تثير استشفافاً عاطفياً يختزن الكثير من المعاني والصور.

ومن تجليات الأمكنة في رواية (الجليد) نرى أن للمكان خصوصية فهو واقع مرتبط بالأشخاص ، وعلى الرغم من محدودية المكان في الرواية لكن حاول الراوي/ الشخصية أن يفصل المكان ليصبح رفيقاً له، وهذا شيء طبيعي لطالب مغترب، فكانت تلك الغرفة سواء الخاصة به أو الغرف الأخرى لأصدقائه ملاذاً آمناً له ولهم((رافقته إلى غرفته حاملاً البيك أب وأسطوانة الموسيقى العربية . كانت الفتاتان في العشرينيات زويا نحيفة في طولي أو أطول قليلاً ذات وجه طفولي وعينين زرقاوين وشعر أشقر قصير وصدر صغير، متزوجة بمجند والأخرى شقراء أيضاً تدعى تاليا ذات ملامح عادية. كانت الغرفة تحوي فراشين متقابلين وثالث خلف

الخزانة ... قدم لنا هانز فودكا وقطعة جبن وخبز متجلداً صبَّ لنا وجرع كأسه قائلاً نخب الصحبة)) [١٩].

يصبح المكان / الغرفة ملاذاً ، وهنا تبرز قدرة الكاتب على إعادة بناء نصه الروائي اعتماداً على المعطيات التي يحملها القارئ في ذاته للموضوع، مثل هذا المكان تعاد صياغته في الذات وهي تتكون عن طريق اللغة وتعيد من خلالها تشكيل المكان بحسب المقاييس التي نراها مناسبة فالصياغة، هي خلق مستمر للموضوع عند كل قراءة ،ومن هنا تأتي أهمية وجود القارئ الجيد الذي يستطيع استنطاق مجاهل النص وسبر أغواره الخفية حتى لا تبقى دلالاته مخبوءة، وهذا من شأنه أن يسمح للقراءة على حد تعبير ميشيل فوكو «أن تقول في الأخير ما كان منطوقاً به بصمت هناك» [٢٠] .

وهذا يؤكد أن المكان الأليف عند الراوي/ الشخصية هو الغرفة، فهو طالب دراسات عليا يعيش سنوات دراسته في هذه الغرفة التي تمثل مكاناً أشبه ما يكون بالبيت وفيه يشعر بالأمان فهو مكان مقرون « بالدفء ويوفر الحماية من الخارج ويمنح الإنسان المجال للحلم والتذكر » [٢١] .

وبما أن الراوي هو البطل في الرواية فإنه يروي ما يحيط بغرفته أو بالأحرى يحاول أن يحمّل هذا المكان ما يشعر فيه من الدفء والألفة والانتماء((لم أكد أنتهي من تنظيف الغرفة وترتيبها حتى طرق الباب فتحت لأجد أمامي برفقة عدد من الرجال والسيدات المتقدمين في السن بينهم رئيسة اللجنة الصحية قالت: القومندانة إنهم يمرون على الغرف للتأكد من نظافتها أفسحت لهم الطريق. اقتربت القومندانة تتأمل في ذهولٍ الصور الفرعونية الملصقة. فتحتْ فمها لتقول شيئا انحبس صوتها قالت لي: انزع هذه الصور حالاً)) [٢٢] ، فصورة الاغتراب النفسي واضحة، وهو بعيد عن وطنه فتعيد تلك الصور في غرفته الإحساس بالألفة فيحاول أن ينسى غربته ، وكأن مصر وحضارتها تتجمع في الغرفة موطنه البديل، وقد انعكست آثار الغربة في غرفته الباردة ، فمن خلال هذا الوصف يحاول الراوي إقناعنا بتآلفه مع المكان الذي يعيش فيه والطالب في هذا النص كان يأمل عن طريق هذه الملصقات الفرعونية قطع مشاعر الغربة وتعويضها بمشاعر الاتصال بوطنه وتأريخه الإنساني والشخصي، فالغرفة هي المكان الأول في الرواية، بل هي المركز، ومن حولها تمتد الأماكن وتتسع لتشمل مكان السكن الجامعي، ثم تمتد لتبلغ موسكو. في هذه الغرفة تدور معظم حوادث الرواية، وفيها يلتقي معظم شخصياتها، حتى الثانوية منها.

ثانياً : المكان المعادي:

هناك بعض الأمكنة تشعر نحوها بالكراهية وربما لارتباط هذا المكان بحادثةٍ ما أو إن طبيعة المكان تدعو إلى الكراهية والنفور منه، ويرد المكان المعادي بأشكال مختلفة ومنها«السجن أو المكان المهجور ومكان الغربة وغيرها» [٢٣] ، وحقيقة إن طبيعة أحداث الرواية وكون الطالب في غرفة تتصارعه الكثير من المشاعر لهذا المكان فكثير من الأمكنة لم تترك أثرا كالذي تركته هذه الغرفة على الرغم من سعة المكان وتعدد أشكاله وصوره، فأختلف الإحساس فيها بحسب المشاعر تجاهها، فقد يشعر بالكبت والضيق أو الراحة والسكينة، فقد شكلت في بعض الأحيان مكاناً معاديا يشعر نحوه بالكره «وهنا تكمن المفارقة التي يحرص عليها الكاتب لزيادة الإحساس بالاختلاف والصراع في الرواية» ، ومعلوم أن المكان الذي يعيش فيه الراوي هو الاتحاد السوفيتي الذي يمثل مكاناً خارجياً، وأبرز الأماكن داخله (الغرفة) التي مثلت الوطن المصغر له خارج بلده الأصلي، ولم تكن رغبته دائما على كونها مكاناً أليفاً فقد يشعر بالضجر والكراهية نحوها.

((**فتحت العجوز الباب عليّ في الصباح الباكر، نهرتها فقالت إنها خشيت أن أكون قد غادرت الغرفة دون أن أدفع الإيجار والكهرباء وأنها سبق أن وجدت أحد سكانها في الصباح غادرها دون أن يدفع ما عليه، قلت بحدة كان يمكن أن تنتظري حتى أستيقظ صاحت إنها حرة تريد أن تتنفس، ثم دخلت الغرفة وفتحت خزانتها الحقيرة، وأخذت تحصي ما بها من أطباق قديمة متآكلة**))[٢٤] ، يظهر لنا النص جانباً من كراهية المكان الذي ارتبط بشعور نفسي تجاه هذه الغرفة وما بها من أثاث ومن ينتمي لهذا المكان أو يتصل به، وقد نجح الكاتب في رسم صورة لهذا الواقع وذلك من خلال استخدام كل طاقات فنية متاحة لتقوية البعد الدرامي، وتعميق الوعي بالذات والواقع المعاش، وكذا تأكيد الهوية من خلال الانكسارات الاجتماعية والثقافية والسياسية لذلك الواقع، وهذا التصوير لا يأتي عفو الخاطر إنما هو مقصود كي تترك وراءها ـ وهو الأهم فى الحقيقة ـ رؤية عميقة متأنية للمشهد الذي أراد الكاتب تصويره.

إن طبيعة العمل الروائي يقوم على التركيز على عنصر المكان لكونه يشكل الفضاء الشامل للأحداث عن طريق تحديد مواقع الشخصيات ورسم مواقفها وتأشير ردود الأفعال الناجمة عن مواقف معينة ولاسيما حين يحس الذي يقطن المكان أنه متضايق بسبب بعض الشخصيات التي تجعل الآخر يضيق ذرعاً بالمكان الذي يعيش فيه، ومثل هكذا أمر يجعل من الوصف الفني للمكان مرتكزاً أساسياً ينهض عليه البناء الفني للرواية.

واللافت للنظر أن الراوي/ الشخصية لا يعطي اهتماما إلا في المكان الذي ينتمي إليه ويعيش فيه وعلى الرغم من سعة المكان وجمال الاتحاد السوفيتي إلا أن الراوي يهتم بوصف الغرفة كونها تحمل عنده ثنائية الألفة والمعاداة ليعبر عن شعور داخلي ونفسي مما جعلها غرفة مزدوجة ، فداخل هذه الغرفة تتصارع غرائز الشاعر وعلاقته الجنسية غير المكتملة إذ إنه كلما اقترب من فتاة يحس بألم عنيف متمثلا بألم (البروستات) ، إذ تتجاذب الشاعر ثنائيتان الأنا والآخر ، وهذا دائما ما يجسده في روايته فهو يمزج بين « لقاء حضارتين ومجتمعين وشخصين مختلفين تمام الاختلاف .. لأن العلاقة لم تتخط في العموم الحدود الجنسية إلا في لحظات نادرة»[٢٥] ، وغالباً ما يجسد المكان تلك العلاقة القائمة بين الراوي والآخر التي تنطوي في كثير من الأحيان على كرهٍ يرافق تلك العلاقة يجسده المكان الذي يعيش فيه.

إذ إن في تضاعيف تلك العلاقة القائمة يبدو النفور من المكان حتى وأن حملت بعداً جسدياً يشعره بالارتياح إلا أنه يحمل الكره للمكان ، وقد يحمل مكان ما الشعور بالكره نتيجة تغيير المكان الأول((**بدأت عمليات طلاء الجدران السنوية استعداداً للفصل الدراسي القادم واستغلالاً لخلو الابيشيني من الطلاب. سألتني القومندانة إذا كنت سأسافر مثل الآخرين أجبت بالنفي، طلبت مني إخلاء الحجرة لدهانها وعرضت عليّ غرفة أخرى في مواجهتها تستخدم مخزناً ، وكانت صغيرة بلا نوافذ وبفراش واحد تعثرت في درجة السلم بمدخلها. وقفت في منتصفها شاعراً بالاختناق**))[٢٦] .

إن هذا الشعور بعدم الألفة هو مؤقت يزول بزوال المسبب، فالراوي غالباً ما يجسد كره المكان بهذه الصورة وهو عدم الشعور بالارتياح والرضا من المكان الذي يعيش فيه، وربما هي إقامة قسرية لحين الانتهاء من صيانة غرفته، ومن ثم ظهرت دلالات تتمثل بالمكان المفتوح والمكان المغلق الذي يجسد ثنائية متضادة طرفاها مكان أليف وآخر معادٍ.

إن الإحساس بثقل المكان وما يعطيه الراوي من مشاهد وصفية يدخل في صلات وثيقة مع باقي العناصر السردية في هذا النص الروائي، وهو ما ينوع في إيقاع السرد حين ينتقل السارد في أمكنة مختلفة تعبر عن شعور نفسي مختلف لكل مكانٍ، وهذا التفاعل بين العناصر المكانية في أشكالها المتضادة يشكل بعداً جمالياً ويتخذ أشكالاً مختلفةً تنوع الأحداث وتزيد في تكثيف الحدث، ويضمن الراوي لنصه التأثير في قارئه((**حان موعد مغادرة منزل العجوز والعودة إلى الابشيجيتي توقعت معركة معها : أن تسرق مني شيئاً أو تتهمني بسرقة شيء أو تحاول ابتزاز نقودي. على الأقل بحجة غطاء المائدة البلاستيكي الذي تمزق مني لكنها لم تفعل شيئاً من هذا**

ولم تدقق فيما أحمله معي من أشياء طلبت كبيكا ثمن النور وكان يمكن أن تطلب روبلاً كاملاً ودعتها فقالت إنها آسفة لذهابي وإني شخص جيد انتقلت إلى غرفتي السابقة في الابشيجيتي))[٢٧] .

إن هذا التنويع في صورة المكان نابع من طبيعة الحياة التي يعيشها الراوي، وعلى الرغم من شعوره بالرضا الذي تصور أن تبديه العجوز لكن البعد النفسي للمسار العام يوضح توقع عدم الرضا من هذا المكان الذي سكن فيه مجبراً.

إن هذا التنويع في الأمكنة يجسد قدرة الراوي على إثارة ذهن المتلقي كون المكان يجسد هذه القيمة حين يكون جزءاً من بناء الشخصيات لان الذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصبح بصيغتها وتسقط على المكان قيمتها الحضارية .

ثالثاً:المكان المفتوح:

إن تقنية المكان المفتوح التي يعتمدها الراوي تكون بنيتة « تسيطر عليها الطرق والممرات والأزقة والخروج عادة من المركز أو من المنزل أو الفندق أو المكتب نحو أمكنة أخرى أكثر انفتاحا على الأفق الخارجي... وتجعل المشهد السردي يوحي بأمكنة أخرى يستطيع أن يتخيل القارئ علاقتها بالأمكنة المذكورة »[٢٨] .

فهذا المكان يرتبط برؤية الراوي وشعوره بالحرية، وهذه الأمكنة المفتوحة يكون لها حضور واسعٍ في النص مما يعطيه فضاء أوسع لتخيل الحدث، فمثل هذا المكان العام والمشاع للجميع يسمح بوجود الكثير من الشخصيات وهذا المكان يشمل«الشارع والمقهى والبار وصالة العرض والمدينة والحدائق والمكتبات والجسور ووسائط النقل وغيرها »[٢٩] ، ولقد تعامل صنع الله إبراهيم في رواية الجليد مع المكان المفتوح بشكل واضح واحتل هذا المكان مساحة غير قليلة في الرواية، إذ إنه كان يمثل نقطة الانطلاق نحو التحرر والانعتاق من تلك الغرف في سكن الجامعة، فكان الخارج المفتوح فسحة يحتاجها هؤلاء الطلبة.

وقد كانت المدينة وما تحتويه من أبنية وشوارع وساحات من أبرز أنماط المكان المفتوح، وفيها يحلق الراوي نحو آفاق واسعة، إنّ المدينة بشوارعها و أزقتها، تعدّ في الأدب و الفن و الحياة فضاءً مفتوحا قد تنطوي على دلالات معينة داخل العمل الفني، إلى جانب الوضوح و العلانية

إن الموضوع الجمالي لتوصيف المكان يهدف إلى تنسيق الادراكات الحسية وإعادة تكوين الموضوع الجمالي ابتداءً من الوظيفة الفنية إلى إثارة ذهنية المتلقي ودمجه في العملية التواصلية للخطاب الفني، حتى يتسنى لنا قراءة المكان قراءة واعية يتطلب منّا إظهار مدى قدرتنا على فهم النص ثم قدرتنا على تلقي النص الروائي وفهمه[٣٠]، مما يجعل المكان نفسه يكشف عن الحالات اللاشعورية للشخصيات، ويسهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليه.

وفي رواية الجليد نرى أنها تعجّ بالأمكنة المفتوحة التي تشكل علامات مهمة في النص وتشكل المدينة بشوارعها وأبنيتها ومقاهيها الجزء الأكبر في هذا المكان((**ذهبت قبل غروب يوم السبت مع فريد وبشار السوري وصديقته هيلين إلى منزل صديقه فريد الروسي على مسافة ساعة ونصف بالقطار. مضينا في شارع قصير ضيق على جانبيه مبان سكنية من أربعة طوابق من الطوب الأحمر، وبدت الأشجار عارية وباردة من غير أوراقها**))[٣١] ، إنّ هذا النص يصف لنا الراوي هذا الشارع ثم ينتقل إلى وصف تدور أحداثه في مدينة سوفيتية ، والراوي في هذا الوصف للمكان المفتوح يعطي أولاً القارئ صورة عن ذاك المكان وتجسيد صورته في ذهنه كي يوصل خطابه بأقصر طريق، وغالباً ما تشكل الأماكن المفتوحة في رواية الجليد مساحات للحرية يبحث عنها الطالب الذي يحس عندها بفقدان التوازن والشعور بالغربة وعدم الألفة مع ما سوى المكان المفتوح،وربما تكشف مثل هذه الأمكنة المفتوحة عن رغبة الشخص في تفاعله مع العالم الخارجي بشخوصه وموجوداته، وأن الخطاب الذي يغلف مثل هكذا أمثلة يكتسب بعداً

شكلياً يجعل الكاتب يستجيب له دون عناء كبير حتى يوصل للقارئ مشاهد حقيقية تجعله حاضرا في العملية الإبداعية، وهذه العملية ليست صعبة بمكان مادامت مرتبطة بالتخيل والإدراك ، وبعد ذلك يضمن الكاتب لنصه بعداً جمالياً من أبعاد النص السردي، ويمنح البنية الدلالية عمقاً أكثر لرصد النص الروائي.

إذا كان المكان المفتوح مكان العيش فإن رؤية الكاتب له لا تخرج عن إطار الصفات التي يظهرها المكان المفتوح، ويضعنا في صورة العلاقة بين البطل والمكان، وهو ما حاول صنع الله إبراهيم أن يقدمه في هذه الرواية، كي يجسد إحساس الراوي نحو الأمكنة المفتوحة التي تدور فيها بعض أحداث الرواية، ولأهمية المكان في الرواية فإن الأثر الذي يتركه المكان على الشخصيات كبير فكون المكان ضيقاً أو واسعاً أو مغلقاً أو مفتوحاً فإنها تقدم مادة أساسية في هندسة المكان فضلا عن أسهامها في تشكيل عناصر السرد الأخرى.

فالمدينة في هذه الرواية تمثل فسحة للحرية بعيداً سكن الطلبة يلجأ إليها الراوي ربما لكي يوازن بين لحظات التوتر وعدم الاستقرار النفسي والبحث عن فسحة أخرى هو يريدها ، وكل هذا الأمر لا يخلو من المرح أحياناً ((**لم أجد رغبة في ممارسة تمارين الصباح استحممت وغادرت المبنى. أقلني الباص إلى ميدان بوشكين نزلت ومشيت من أمام المباني القديمة الرحبة وبنايات عهد ستالين المتجهمة ثم المباني الحكومية الضخمة بلونيها الوردي والأخضر أو الأصفر والبني والأخرى السكنية من أيام خروشوف. مرت من أمام تمثال بوشكين البرونزي الذي كان محنى الرأس من الأسى**))[٣٢] ، فالمدينة وما بها من مبانٍ وشوارع كانت متنفساً للراوي يروي ما يراه، فنجده ينتقل بالوصف من شارع إلى شاعر ومن مبنى إلى آخر، فهو على الرغم من أنه أعتاد هذه الأماكن والمناظر ولكنه يتعمق في وصفها لنا مرة بعد أخرى وربما يريد من هذا الوصف إثارة متعة القارئ وشده للتواصل مع الخطاب.

ومعلوم أن سعة المكان المفتوح / المدينة وانفتاحه على الكثير من العناصر إنما هو انفتاح للراوي/ الشخصية بحثاً عن الحرية بعيدا عن الأماكن المغلقة والفضاء الذاتي، وربما كانت هذه الأمكنة التي جسدها هنا ربما هي أيضا معادلة للمكان الأليف إذ مارست فيها الشخصيات حريتها وحققت فيها رغباتها، وهذه الحرية تنطوي«على أهمية نظراً لأنها تكشف عن مفهوم حرية الإنسان في استخدام المكان ومحاولته أن يجعل المكان على الرغم من محدوديته حقلاً واسعاً يتحرك فيه كيفما يشاء»[٣٣] .

وفي موضوع آخر يتحول المكان المفتوح إلى مكان واسع يختزل المدينة في منظر واحد((**عملت قليلاً في الصحف ثم ظهرت الشمس ووقفت في النافذة الناس في ملابس الأعياد والأطفال يحملون البالونات، والرجال يحملون مشتوراتهم من الموز الذي يظهر في المناسبات رأيت زويا متأبطة ذراع شاب حليق الرأس قدرت أنه زوجها ... مرا أمام المنزل تجاه محطة الباص كانت تسير غارقة في أفكارها وكانت أول امرأة أراها منذ دخول المستشفى**))[٣٤] ، فهذه النافذة تمثل فضاءً مفتوحاً تنقل بين عالمين عالم الراوي والعالم المفتوح بكل صوره وأشكاله، فهو يتابع حركة الناس من خلال تلك النافذة التي أصبحت وسيلة تربط بين عالمين عالم واسع ومفتوح ومتلون وعالم الراوي الذي يطل من خلال تلك النافذة التي جسدت تفاصيل المدينة والناس ، وهذا يمثل«حداً فاصلاً بين عالمين... يتم اجتيازهما طوعاً أو كرهاً فيتحقق الانتقال من عالم إلى آخر مغاير وربما متناقض»[٣٥] ، فالمكان المفتوح يستوعب كل تطلعات الكاتب وفيه يتسلق من عالمه الخاص إلى العالم الآخر ليعبر عن تجربته أو موقف شعوري معين، إنها لحظة فاعلة في البناء الروائي لا يدرك بالبصر إنما هو موجود في عالم الكاتب يجسد من خلالها الكثير مما يريد إيصاله إلى متلقي نصه، وعلى الرغم من أن «ضيق المكان هو الذي يكسب الصراع الدرامي حدته ويعجل انسياب الزمن »[٣٦] ، إلا أن سعة المكان المفتوح تسهم في التفاعل بين الشخصيات وربما تزيد من فاعلية الزمن، وهذا يعني أن ضيق المكان لا يؤثر في سير أحداث الرواية، ومعلوم أن وجود الشخصيات في هذه الأمكنة هو شعور مفاجئ سرعان ما يزول بزوال

المسبب ، وتمثل الأماكن التي يعج بها وجود الشخصيات مكاناً مهماً في تجسيد أحداث رواية الجليد، فهو يمثل المأوى الذي تنشد فيه الشخصيات البحث عن عالم تتجلى فيه صور شتى من صور الحياة الاجتماعية، وربما تكشف مثل هذه الأمكنة عن مزاج الشخص ورغبته في ارتياد أماكن خاصة، وهذا ما يتجلى في النص الآتي: ((**أكملنا الشارع حتى نهايته حيث المطعم أرباط الفحم الذي يتألف من صالة صفت فيها المقاعد والموائد فظهرت خلال الزجاج ثلاث مغنيات فوق منصة هالني العدد الهائل من النساء**)) [٣٧] إن هذا الوصف الدقيق والواضح لحركة الشخوص في المكان يجسد دلالات عدة ولا سيما دلالة التنوع التي حاول الراوي أن يوصلها إلى القارئ لغرض بلورة الحدث وتعمل على معرفة أبعاد الشخصيات وطبيعتها.

إن الحديث عن جدلية العلاقة بين مثل هذه الأماكن هو الحديث عن خصوصية التجربة، وهذه تحتم بروز البعد الفني للخطاب حتى يصبح المكان فاعلا وحيوياً، وهذا الأمر يمكن تلمسه في العرض السريع لبعض الأمكنة ورسم أبعادها الفنية لتعطي المتلقي وهماً بواقعية ما يقرأه.

ويحاول صنع الله إبراهيم في روايته تجسيد المكان المفتوح برؤية شخصية تتميز بالاتساع والعمومية ولا يقتصر على شخصية الراوي/ الشخصية بل مكاناً مشاعاً للجميع((**في الصباح كانت طبقة بيضاء تغطي أطراف النوافذ وشذرات الثلج تتطاير بكثافة. اختفى الوحل أسفلها وتلاشى اللون الرمادي أصبحت المدينة العابسة القاتمة فاتنة البياض. واستولى الفرح على أهلها. الجميع يتبسمون يركضون في الشوارع، ويمدون أيديهم ليتلقفوا السبائخ المخملية ضاحكين.. عند العودة في الطرقات الخالية مررنا بمتحف الثورة ظهر فجأة موكب غريب صامت غطين رؤوسهن بالشيلان وسرن في صفوف أربعة تحت الثلج في اتجاه الميدان الأحمر**))[٣٨]، يتم في هذا النص وصف المدينة بكل صورها وتجلياتها، فيقوم الراوي بوصف المكان بكل أبعاده وتأثيراته عليه، و فضاء المكان بهذا المعنى يكتسب بعداً شكلياً يجعل عين الكاتب تستجيب له دون عناء لاكتفائها بالمشاهدة، ومثل هكذا أمكنة تؤدي دوراً مهماً في الإيحاء بعالم الراوي وهواجسه، والمدينة تؤدي دروا مهماً في المكان ووصف معالمه فضلا عن أنه يسهم في تفاعل الشخصيات في الرواية، وتضعنا مباشرة في صورة العلاقة التي تنشأ بين بطل الرواية والمكان الذي يعيش فيه، ويظهر المكان في رواية الجليد معبرا عن نفسية الشخصيات ويمثل في مثل هذه الرواية مآلا للأفكار والمشاعر تنشأ بينه وبين الإنسان علاقة وطيدة يؤثر فيها فنيا كل طرف في الآخر.

وصف الأمكنة:

معلوم أن المكان عنصر فاعل في بناء النص الروائي، ووصف المكان الروائي يعني تجسيد المكان بوصف يجعل المتلقي قريباً جداً من الحدث، وإن هذا الوصف قد يقتصر على بؤرة بعينها أو أن يكون شاملاً بحيث يعرض التفاصيل كاملة، أي يعرض مشاهد مكانية كاملة.

والروائي حين يلجأ إلى وصف الفضاء والمكان الروائي فإنه يرمي من وراء ذلك إلى بثّ المصداقية فيما يقول، ويجعل المكان في الرواية مشابها في مظهره الخارجي للحقيقة نابعاً من مرجعيته الواقعية، والروائي حين يصف المكان فانه يستغل الإمكانات كافة من أجل تقريب الصورة وجعل الحدث قريباً ويجعلنا«نقف على الصورة الطوبوغرافية للكلمات، والتي تخبرنا عن مظهره الخارجي» [٣٩] ،ومثل هذا الوصف الدقيق غالباً ما كان ينشده الاتجاه الواقعي في الأدب وكل ذلك بلا شك يتم من خلال اللغة، وإن عملية الوصف تختلف من روائي إلى آخر، فبعضهم يستغل الأطر الفنية في وصف الأمكنة، وبعضهم يمر على وصف المكان مروراً عابرا ، إذ يتم هنا التركيز على الحدث أكثر من التركيز على الوصف لأن الراوي على علم بأن المتلقي سوف يرسم حدود المكان بنفسه.

ومن الجدير بالذكر أن فكرة الوصف للمكان تختلف حسب المدارس النقدية ولكن المحدثين اعتنوا بذلك فهم من خلال وصف ذلك«بدقة متناهية وتحدد مكونات الشيء وأبعاده ومقاييسه بأساليب وطرق تقترب إلى حد بعيد من الأساليب العلمية والهندسية»[٤٠] .

وفي رواية الجليد عني الروائي صنع الله إبراهيم بالوصف التفصيلي والموضوعي عن طريق استقصاء الحدث والشخصية التي تجسد ذلك المكان، ونقصد بالوصف التفصيلي هو الوصف الذي يقوم على كل جوانب الشيء الموصوف أو معظمه لذلك يطلق عليه الوصف الاستقصائي .

ولكن هذا لا يمنع الروائي من أن يكون وصفه للمكان أو ما يتعلق به غير مباشر، فقد يكون ذلك الوصف من خلال إسقاط الصفات على المكان، وهو بكل هذا لا يسعى إلى تصوير المكان الخارجي، وإنما تصوير داخل الرواية بأكبر قدر من المصداقية حتى يجعل المتلقي مقتنعاً فيما يقرأ، فكثير من الأماكن يرويها الراوي، ولكن لم يرها وهنا تبرز قدرة خياله وفاعليته على تقريب الوصف المكاني و يأتي بالوصف المكاني متخللاً السرد، و الأزمنة الفاعلة، بما يجعل المكان عنصراً أساسياً يندمج في عناصر النص، بحيث يمنحها القوة التي تحتاجها، لتصل إلى ذهن المتلقي، و كأنها حقيقة لا مجال للخيال ليلعب فيها، و بهذا يكون المكان قد تخلّى عن سلبيته إلى دور إيجابي و فاعل حقيقي، قد يبلغ به الأمر إلى حد التحكم في الأحداث .

وقد حاول صنع الله إبراهيم أن يعطي بعض التفصيلات للمكان بحيث تبدو أكثر موضوعية((**كانت الغرفة مضاءة بمصباح المكتب والموسيقى تنبعث من اسطوانة راقصة، وعلى المائدة زجاجة نبيذ، وكانت سفيتلانا تمسك سيجارة مشتعلة بيد فوق ركبتيها العاريتين. سألتني ألم تذهب إلى أي مكان أجبت وأنا أضع .....الطعام على الأرض واخلع معطفي أبدا وضعت المعطف في الخزانة... كان الضوء ضعيفاً والمائدة تخفي ساقيها. لم يكن أمامي غير وجهها وشعرها الأشقر الناعم الذي جمعته خلف رأسها**))[٤١] .

إن الوصف التفصيلي للراوي موضوعي لهذه الغرفة وما فيها من أثاث وحتى تلك المرأة التي فيها، فهو يريد لهذه التفصيلات في الوصف يتأمل شكل الغرفة التي التقى فيها هذا الشخص مع هذه الفتاة، فضلاً عن كشفه عن بعض الطقوس التي اتخذها مثل إعداد الطعام وخلعة للمعطف ودرجة الضوء والموسيقى...، وهذا هو المكان الروائي الفني الذي يحرص الكاتب على إيصاله ليعبر عن وجهة نظر فكرية أو رؤية خاصة به يريد إيصالها، وكل ذلك يتم من خلال التعامل مع الشخصيات والحوادث((**وأخيراً الشارع تحت الثلج الذي أصبح أكثر ثقلاً وبدأ يتراكم فوق الرصيف . الناس تمشي بحذر فوق الأرصفة التي تغطي بعضها الرمل. المعاطف السميكة المبطنة بالفراء والقبعات والكوفيات حول الأعناق لا يظهر من الوجوه غير فتحتي الأنف والعينين. نازحات الجليد في كل مكان وإلى جوارها النقلات التي تنقل الرمال فرق من النساء بالجواريف والنازحات الخشبية والمكانس يقمن بتنظيف الشوارع الجانبية... طابور طويل من المنتظرين خارج ضريح لينين ليلقوا نظرة على جثمانه المحنط**))[٤٢] ، يأتي الوصف على لسان الشخصية التي تحدثنا عن هذا الشارع وما به من تفاصيل لتعبر بصورة ذاتية عما تراه بصورة مباشرة في الطريق الذي يقطعه الراوي، فنحن نتخيل ما نقرأه هنا فنرى ما يتضمنه هذا المكان من خلال ذلك العرض التفصيلي.

ولقد أسهم هذا الوصف التفصيلي للمدينة باعتبارها مكاناً مفتوحاً يستوعب الكثير من الوصف، فقد استغل الكاتب كل تفاصيل المكان ليعطي المصداقية للحدث والمكان، ولقد اكتسب هذا الوصف أهمية من خلال اندماجه بعناصر السرد الأخرى، وهذا ما يؤكد على أن الاندماج الطبيعي بين العناصر السردية ولا مكان للفصل بينهما، وغالباً ما توصف الرواية بأنها«بنية كلية لبنىً داخلية» ، وهذا الوصف بمثابة مرآة عاكسة للأحداث، وقد يعطي الكاتب للوصف مساحة أوسع، فالغرفة مثلاً مكان داخلي محدود المساحة، ولكن حين يريد الراوي الوصف فإنها تصبح

فضاءً لا حدود له ينقلنا من خلالها إلى عوالم وأمكنة عديدة، أو من خلال ما تحتويه من رسومات وأثاث ومجسمات.

وعلى الرغم من أن المكان قائم في خيال المتلقي يصوره الكاتب بأحوال وأشكال مختلفة، فيجسد أغوار الشخصيات وعوالمها النفسية المختلفة((**أشرفنا على غابة صفراء في الساعة الثانية. أوراق الأشجار صفراء في طريقها إلى الصفرة ولكنها ليست ذابلة. تتخللها الشمس حولها حقول تجريبية احتفظت بخطوطها الداكنة جلسنا على أريكة حديدية. بالقرب منا جلست امرأة نتأمل ساقيها وركبتيها بإعجاب، وقد عرضتهما للشمس... واصلنا السير وسط الهدوء الشامل وقد اختفت الموسيقى العسكرية أحاطت بنا الأشجار بألوان تبدأ من الأحمر القاني إلى الوردي والأصفر . فوق سطح البحيرة انتشرت عدة قوارب بطيئة الحركة في اتجاهات مختلفة. كان مظهر كله سحر اللوحات القديمة التي استقرت في ذاكرتي من الطفولة والمراهقة عن أوربا وعن السعادة**))[٤٣] . هذا الوصف التفصيلي ينطلق من رؤية موضوعية يجسدها الراوي، وهنا يتجسد الخلق الفني في رسم المشاهد والصور، فكل شيء في هذا الوصف موضوعي، فكلما كان الوصف موضوعياً أسهم في خلق فضاء نصي أقرب إلى الحقيقة التي يبحث عنها القارئ، فالعلاقات المتواشجة للعناصر السردية تحقق من خلال ذلك الوصف الموضوعي برؤية تلتحم معها كل عناصر العمل الفني، الوصف هنا استقصائي تفصيلي، والصور التي قدمت في هذا النص قد تحتمل رموزاً تعبر عن تجربة خاصة للسارد وربما يستطيع القارئ استجلاء بعض أسرار هذه التجربة عن طريق بعض الألوان المذكورة في هذا النص كالصفرة والحمرة والوردي، ولا يمكن أن يأتي ذلك إلا من خلال راوٍ مشارك في الأحداث أو عن طريق راوٍ عليم بكل شيء، ويلاحظ أن المؤلف كان شديد الحرص على إبراز التفاعل القائم بين حياة الراوي وبين بيئة الاتحاد السوفيتي، وهذا ما يسعى الكاتب لتحقيقه من خلال مزاوجته بين الواقع كما يراه، و بين ما يأمله و ينشده، و هذه المزاوجة ستثمر واقعاً جديداً، و قراءة أكثر تطوّراً للواقع[٤٤].

وكما قلنا يأتي الوصف الموضوعي الذي يكون باستقصاء المكان ومكوناته ويساعد هذا الوصف على فهم أبعاد الشخصيات القصصية وطبقاتها ، أي أننا نفهم حالة الشخصية المعاشية من خلال المكان الذي توجد وتعيش فيه ، إذ نرى تشكيل الفضاء يبتدئ بصورته الأعم، وذلك بعرض الفضاء باتساعه، و بأمكنته المتعددة في مستهل العمل الروائي، معتمداً عليها كمدخل رئيس للنص، و بعد وضعه في سياقه العام، تأخذ صورة الجزئيات المكانية الشكلية، التي تُكمل الإطار العام للوصف المكاني بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة.

الخاتمة ونتائج البحث:

الحمدُ لله سبحانه وتعالى، نحمدهُ ونشكرهُ على فضائل نعمته فقد اتضحت من خلال هذه الدراسة نتائج عدة متعلقة برواية الجليد وأدائها الفني وسنكتفي بذكر أهم ما توصلت إليه مباحث هذه الدراسة:

- يستمد العمل الروائي خصوصيته من ارتباطه بالمكان ،ولاسيما حين يكون العمل يتعلق بالغربة ، فإن الأمر يكون أكثر إلحاحا لحضور المكان.

- إن رواية الجليد قد احتوت على أشكال متعددة ومتنوعة من المكان الأليف ، فقد شكلت الغرفة التي يعيشها فيها الراوي / الشخصية مكانا أليفا و أثيرا ولاسيما أنه طالب مغترب يعيش بعيدا عن بلده.

- وشكل المكان المعادي رديفا للمكان الأليف فقد تحول المكان الأليف في بعض الأحيان إلى مكان معادٍ بحسب الطبيعية النفسية والشعورية للمكان فقد لمسنا تحول الأماكن الأليفة إلى معادية وبالعكس اعتماداً على رؤية الشخصيات لهذه الأماكن لا المكان بحد ذاته.

- إن حالة التصادم الذي يحدث بين رغبة الشخصية في الحصول على الاستقرار النفسي في المكان الذي هي فيه ، وبين الواقع المغاير الذي تفرضه طبيعة هذا المكان، تؤدي بطبيعة الحال إلى إيقاد شرارة النفور الأولى من هذا المكان ، ومن ثم إفراز كل تلك المشاعر العدائية للمكان

- وجسد المكان المفتوح رؤية الراوي وشعوره بالحرية، وهذه الأمكنة المفتوحة يكون لها الحضور الواسع في النص مما يعطيه فضاءً أوسع لتخيل الحدث.

-استطاع الكاتب من خلال تقنية المكان المفتوح أن يوظف كل الطاقات الفنية لتقوية البعد الدرامي وتعميق الوعي في رصد الواقع المعيش.

-أما وصف المكان في الخطاب الروائي لهذه الرواية فقد حمل بعضه بعدا دلاليا، إذ ارتبط بإحساس الشخصية فيه لذلك رسمه الكاتب على أساس البعد النفسي لا على أساس البعد الواقعي، إذ تتحول الأمكنة المألوفة في الواقع إلى أمكنة جديدة ترسمها رؤية الشخصية الذاتية ، فكان جزءاً من نسيج الخطاب، وكان لأغلب الأوصاف دلالة فيه، في حين جاء بعضها الآخر نتيجة تأمل الشخصية

- جاء وصف المكان في رواية الجليد لرسم الإطار الهيكلي للفضاء الذي تجري فيه الأحداث ويلاحظ كثرة الوصف الموضوعي التفصيلي مقارنة بالوصف الذاتي وبه يتحول الوصف إلى أداة فاعلة تفرض حضورها على المتلقي.

الهوامش والإحالات:

[١] جماليات المكان، غاستون باشلار: ٦.

[٢] ينظر: الفن القصصي، نبيلة إبراهيم: ١٣٩

[٣] ينظر: فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب ، يمني العيد: ١٠٩.

[٤] بناء الشخصية في روايات نجيب محفوظ، بدري عثمان:٩٤

[٥] ينظر: المكان في الرواية، غالب هلسا:١٩.

[٦] المكان في الرواية العربية(الصورة والدلالة)، عبد الصمد زايد:١٣٦ .

[٧] الجليد، صنع الله إبراهيم: ٧.

[٨] الجليد :٤٥ .

[٩] بنية النص الروائي، إبراهيم خليل: ١٤٥.

[١٠] الجليد :٤٥ .

[١١] ينظر: بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ،د.سيزا قاسم:٤٠

[١٢] في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض:١٥٦.

[١٣] الجليد : ١٣ .
[١٤] نظام الخطاب ميشيل فوكو: ١٩ .
[١٥] ينظر : الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا: ابراهيم جنداري: ٢٣٧ .
[١٦] الجليد: ١٩٦ .
[١٧] المصدر نفسه: ١٩٧ .
[١٨] بنية النص الروائي: ١٤٥ .
[١٩] الجليد ٩٦ .
[٢٠] نظام الخطاب : ٢٠ .
[٢١] الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا: ٢٣٩ .
[٢٢] الجليد ١٩٧ .
[٢٣] الرواية العربية وراقع وآفاق، د. محمد برادة واخرون:٢٦ .
[٢٤] الجليد :١١٢ .
[٢٥] العمامة والقبعة لصنع الله ابراهيم(زمن الغروب)، احمد الخميسي: ٨ .
[٢٦] الجليد: ١١٢
[٢٧] المصدر نفسه : ١١٢
[٢٨] مشكلة الفن ، يوري لوتمان: ٨١.
[٢٩] بنية النص الروائي: ١٤٦ .
[٣٠] قضايا الفن الابداعي عند ديسكوفسكي، باختين: ٢٤٩ .
[٣١] الجليد: ٣٦.
[٣٢] المصدر نفسه: ١١٦.
[٣٣] استراتيجة المكان، مصطفى الضبع: ٦٠ .
[٣٤] الجليد ٧٠ ـ ٧١
[٣٥] في غياب الحقيق، (حول متصل –زمان ومكان)،في رويات نجيب محفوظ، حسن حمودة:١٢٤ .
[٣٦] بناء الرواية، ادوين موير: ٨٧ .
[٣٧] الجليد : ٧٨ .
[٣٨] المصدر نفسه: ١٥١ .
[٣٩] الخطيئة والتكفير، عبدالله الغذامي: ٩.
[٤٠] المصدر نفسه: ١٤ .
[٤١] الجليد: ١٥٩ .
[٤٢] المصدر نفسه: ٢٠ .
[٤٣] المصدر نفسه: ١٣٨ .
[٤٤] ينظر: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف: ٩٦ .

ثبت المصادر والمراجع:

- إستراتيجية المكان، مصطفى الضبع،الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- بناء الشخصية الريفية في روايات نجيب محفوظ، بدري عثمان، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة، بيروت،١٩٨٦م.
- بناء الرواية، ادوين موير، ترجمة إبراهيم الصيرفي، مراجعة د. عبد القادر القط ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.

- بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، د.سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٤.
- البناء الفني للرواية العربية في العراق، الوصف وبناء المكان ، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٠٠ .
- بنية النص الروائي، إبراهيم خليل، الدار العربية ناشرون، الطبعة الأولى، بيروت ،٢٠١٠م.

- تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف ، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية–سوريا، ط١، ١٩٩٧م
- الجليد، صنع الله إبراهيم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ، الطبعة الأولى، ٢٠١١
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧م.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية : عبدالله الغذامي ، كتاب النادي ، جدة ، السعودية ، ط ١ ، ١٩٨٥.
- الرواية العربية واقع وآفاق، د.محمد برادة وآخرون، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١
- الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، حسن بحراوي، المركز الثقافي ،الدار البيضاء، الطبعة الأولى،١٩٩٠م.
- العمامة والقبعة، لصنع الله إبراهيم(زمن الغروب) د.أحمد الخميسي، العمامة ، دار المستقبل العربي
- الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، إبراهيم جنداري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠١م
- الفضاء الروائي، الفضاء الروائي/ ترجمة:عبدالرحيم حُزَل / أفريقيا الشرق(بيروت) /٢٠٠٢م .
- فن الرواية،العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب،د.يمني العيد، دار الآداب بيروت،١٩٩٨م.
- فن القصص بين النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، مكتبة غريب، القاهرة،١٩٩٠م.
- في غياب الحقيقة /حول متصل(الزمان\ المكان)في روايات نجيب محفوظ، حسين حمودة، القاهرة، الطبعة الاولى مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٧م

- في نظرية الرواية، عبدالملك مرتاض ،المجلس الوطني للثقافة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٨م.

- قضايا الفن الإبداعي عند ديستوفسكي ،م،ب باختين، ترجمة:د. جميل نصيف التكريتي، مراجعة :د.حياة شرارة ، دار الشؤون الثقافية العامة ط ١،بغداد ،١٩٨٦ .

- مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة سيزا قاسم مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة ، الجامعة الأمريكية، العدد السادس، ربيع١٩٨٦م.
- المكان في الرواية البحرينية، فهد حسين، فراديس للنشر والتوزيع، البحرين، ٢٠٠٣
- المكان في الرواية العربية، غالب هلسا، دار ابن هانئ دمشق، الطبعة الأولى،١٩٨٩م.
- المكان في الرواية العربية(الصورة والدلالة)، عبد الصمد زايد، نشر: دار محمد علي الحامي.تونس ط الأولى،٢٠٠٣م.
- منزل النساء بين القصة الشعرية وآثار الرواية الجديدة، علي كاطع خلف، مجلة الأقلام بغداد العدد التاسع والثلاثون، آذار،١٩٨٨م.
- نظام الخطاب ميشيل فوكو، ترجمة ، محمد سبيلا، التنوير– بيروت٢٠٠٧